لماذا وضعت هذا الكتاب ؟

من الظواهر العجيبة التى تسترعى نظر الباحث المدقق فى الثورات الفكرية والانقلابات التاريخية : أن البيئة التى تختمر فيها بذور هذه الثورات والانقلابات، وتكمن فيها بواعثها ودوافعها هذه البيئة لو درسها الباحث لخرج منها بشىء عجيب حقا وهو خصامها للدين والحادها به ، والعمل فى غير شفقة ولا رحمة ولا تدبر ولا تروٍ على هدم مبادئه ومحو آثاره والمتتبع لتاريخ هذه الثورات الفكرية والحركات الانقلابية يظهر له ذلك كله فى وضوح وجلاء ويقين ولنتحدث عن هذه الثورات القريبة التى ما زالت تؤثر فى التفكير البشري حتى الآن وأولى هذه الثورات ثورة أوربا على الكنيسة فى أواخر القرون الوسطى هذه الثورة التى كانت تمتاز بطابع السخرية من رجال الدين والتحلل المسرف من الايمان بالله ومن قواعد الأخلاق التى رسمها الدين للناس . فكان طابعها الاعتماد على العقل وحده فى النظر إلى الأشياء والناس والكائنات وليس أدل على ذلك من أن الفلسفة التى آمن بها أدباء أوربا ومفكروها فى ذلك الحين واتخذوها مادة لغذائهم العقلى وأخذوا يقيسون آراءهم وتصورهم للاشياء على ضوئها وبوحى من هديها لم تكن الا فلسفة اليونان الوثنية الملحدة التى لم تكن تؤمن برسل ولا بأنبياء ولا آلهة . والتى وضع سقراط أسسها وأقام دعائمها من بعده تلميذه أفلاطون وأرسطاطاليس . هذه الفلسفة التى كانت قائمة على التأمل والفكر والايمان بالعقل ومحو أى قيد يقيده ويجعله قابعاً فى دائرة محدودة لايريم منها ولا يحيد عنها هذه الفلسفة التى كانت أول لبنة من لبناتها هذه الجملة المشهورة التى كانت مكتوبة على معبد دلفا والتى اتخذها سقراط شعاراً له (اعرف نفسك بنفسك) فكانت ارتفاعاً للفرد وايماناً بالعقل ومقدرته وقوته وكانت تقديساً

للفكر الحر الذى كان طابعه الاستقلال وعدم الاعتماد على تقاليد أودين أوعرف لم يكن سقراط يؤمن بإله اليونانيين (أبولون) ولم يكن يتبع شيئا من مبادئه أو تعاليمه وانما كان يسخر منه ومن اليونانيين فى محاوراته ونقاشه مع تلاميذه وقد ظل معتصما بذلك حتى وهو فى أشد نكبته وأعصب وقت فى حياته يوم أن وقف أمام قضاته ليحاكم على خروجه على الدين وعمله على هدم العرف والتقاليد فلقد سخر من الدعوى وسخر من قضاته حين طلبوا منه أن يدافع عن نفسه لأن إيمانه بعقله وتقديسه لحرية الفكر وبصيرة الانسان كان يملك عليه نفسه وحواسه فكان يعتقد أن اقامة مثل هذه الدعوى عليه عبث من القوم وضرب من الخزى والعار وكان من نتيجة ذلك أن حكم عليه قضاته بالاعدام فتقبل الحكم راضيا مبتسما ساخرا لأن هؤلاء القضاة قد حكموا على جسمانه المادى بالفناء ولكنهم لم يستطيعوا ولن يستطيعوا أن يحكموا على آرائه الفكرية وفلسفته العقلية بالزوال والاعدام وكان أن تجرع السم فى رباطة جأش رائعة وفى غير ما جزع ولا مال وظل حتى وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ناعيا على اليونان تفكيرهم منكرا عليهم معتقداتهم وتقاليدهم لم يتطرق إلى نفسه ضعف أو خور أو شك فيما قال بل لم يندم على ما كان .

هذه هى فلسفة اليونان بتحللها وانطلاقها وعبادتها للعقل وانكارها كل شىء غيره هى التى انتهل منها مفكروا أوربا فى ثورتهم الفكرية وأول نهضتهم الحديثة حتى جاء هذا العصر الذى يؤرخونه بعصر التنوير مجدا العقل مزهوا به منكرا الروح ساخطا على كل مظهر من مظاهرها وهو عصر الفيلسوف الفرنسى (فولتير) الذى بلغ فيه العقل منزلة من القدسية والألوهية لم يكن يحلم بها

ونترك هذا الآن لنتحدث عن ثورتين خطيرتين حدثتا فى قرننا هذا الذى نعيش فيه ـ القرن العشرين ـ وأولى هاتين الثورتين هى ثورة الشيوعية فى روسيا والدارس السيكولوجى لنفسية هذه البيئة التى احتضنت تعاليم (كارل ماركس) البروسى اليهودى واعتنقت مبادئه وأرهفت اذنيها لصوته يخرج بنتيجة غريبة غاية فى الدهشة والعجب فإن هذه البيئة كانت تؤمن قبلا بالمسيحية وكانت تخضع

معيشتها ونظم حياتها لتعاليم القساوسة والرهبان وكان هؤلاء القساوسة والرهبان أنفسهم يدعون الناس إلى الزهد والقناعة والاتكال والذلة والمسكنة والمحافظة على النظام الامبراطورى القائم نظام القيصرية ونظام الطبقات من أمراء وأشراف ونظام الإقطاعيات هذه التى كانت تجعل من روسيا كلها وهى الارض الشاسعة الواسعة ضيعة لعمداء النظام القيصرى القائم بل كان هذا النظام يحمل فى ذاته امتهاناً مخيفاً للكرامة البشرية لأنه كان يجعل غالبية أفراد الشعب سخرة وعبيداً لهؤلاء الأشراف والأمراء بل لهذه الضياع التى يملكونها لأنهم كانوا تابعين لها يباعون ويشترون كما تباع هى وتشترى ولم يكن القساوسة والرهبان ورجال الكنيسة منكرين لشىء من ذلك بالقول أو الفعل وإنما كانوا يسكرون الناس بروحانيتهم ويتيمونهم بمواعظهم هذه التى تستعذب الذلة والمسكنة والخضوع ومن هنا ندرك كيف تقبلت روسيا مبادىء (كارل ماركس) واحتضنتها وجعلتها انجيلا لها ومن هنا ندرك أيضاً كيف كان عداؤها للدين بغلوه واسرافه حتى قال لنين أبو الثورة (إن الدين مخدر للشعوب مؤخر لها عن النهوض والكمال)

فلولا هذه الظروف الاجتماعية السيئة التى كانت تسود روسيا فى عهدها القيصرى البغيض ولولا هذا الاستغلال والظلم الذى ظهر بأبشع صورة وأتعس ما يتصوره عقل الانسان، ولولا جمود رجال الدين وانحطاطهم ونفاقهم وتفكيرهم الرجعى لما وجدنا هذه القسوة الطاغية ولا هذا العنف المتغالى الشامل سواء على النظام القائم أو على الدين ونظمه وتعاليمه ولكل ما يمت إليه بصلة من قريب أو بعيد

هذه هى روسيا القيصرية وما كان يكتنفها من عوامل الانحطاط والفقر الخلقى والافلاس الاجتماعى والجشع الاستغلالى والعربدة الرأسمالية.

وهذه هى الثورة الشيوعية التى كان يكمن وراءها من روح التذمر وبواعث السخط ما جعلها لا تلوى على شىء فى طريقها لأنها ترفع عن كاهلها عبئا ثقيلا بغيضاً ولأنها تستنقذ نفسها من ظلم صارخ مزمن لم تكن تحس به لأنه لم يكن

يوجد من ينبهها إليه ولأن رجال الدين وأرباب الكنيسة كانوا آخذين على أنفسهم عهداً بقتل كل نزعة وهي في مهدها ترمي إلى التحرر من الفقر والظلم والمسكنة

كان رجال الدين لشهوات في نفوسهم خبيثة وحرصهم على بقاء العهد الحاضر على حاله الذي يتمتعون فيه بجاههم المادي وسلطانهم الروحي أو لعقليتهم التقليدية الرجعية التي لم تكن تهضم ولا تقبل أي طريقة من وسائل الاصلاح ما دامت تحمل في طياتها روح التجديد والإبتكار .

كان رجال الدين هؤلاء هم العقبة الكؤود في سبيل كل تقدم أو اصلاح وإذاً فيجب القضاء عليهم قضاء لا هوادة فيه وإذاً فيجب إزالتهم وعدم الاعتراف برسالتهم هذه الروحية التي قتلت روح الابتكار وعطلت التقدم والاصلاح كل هذه الحقب الطوال .

وقد كان من عداء هذه الثورة للدين الذي كان يمثله هذا الرهط من القساوسة والرهبان وقد تقبل أفراد الشعب من زعماء روسيا ومفكريها هذه الدعوة الى هدم الدين بحماسة وقوة واقبال واستبدلوا إنجيل عيسى بانجيل (كارل ماركس)

ولولا أني اشفق من إطالة البحث في هذه الصفحات اليسيرة القليلة لحدثتك عن شيء لا ينفد من حماقة رجال الدين وجمودهم وعقليتهم التقليدية وارتكابهم اخطاء شنيعة ومسئوليات جسيمة في حق الدين وفيما أوذي به وما انصب عليه من هذه اللعنات والسخطات: ولكن لنترك ذلك الآن على أن نحدثك عنه مرة أخرى في موضعه من هذا الكتاب . ولم يبق إلا أن ننتقل بك الآن إلى الثورة الثانية متأملين مسببين حسب ما تتسع له مقدمة هذا الكتاب لأن هذه الثورة تعنينا أكثر من غيرها لأنها حدثت من أمة اسيوية شرقية كانت تشترك معنا في المزاج والعقيدة وكانت تربطنا بها روابط عدة : روابط تاريخية وروابط اجتماعية بل كنا مرتبطين بها فيما هو أخطر من ذلك فكان في يدها مصيرنا ، وكانت ترسم لنا مجرى حياتنا ، وتتحكم فينا في كل شيء بحكم الخلافة الاسلامية التي كانت مركزها حينذاك .

لننتقل الآن إلى (تركيا) ولنتأملها في ثورتها العنيفة وانقلابها الخطير فإننا

نجد هذه الدولة التى كانت الرأس المدبرة واليد الموجهة للعالم الاسلامى بحكم الخلافة . قد انقلبت من تدين بالدين وحرص عليه ومحافظة له إلى الحاد مسرف به وإلى سخط عام ليس على الدين الاسلامى فقط وانما على الأديان جميعاً . وعلى ما سمته العقلية الاسيوية بوجه عام . ولننقل الآن بعض فقرات من كتاب لكاتب تركى عاصر الانقلاب التركى واسمه (قابيل آدم) واسم الكتاب مصطفى كمال لنرى إلى أى حد كانت تعتور العقلية التركية هذه البواعث والعوامل التى ساعدت على نجاح حركة مصطفى كمال قال الكاتب التركى ((١) إن العقلية الأوربية هى العقلية التى تتسق وحاجات هذه الحياة الدنيا ونحن انما نتبع ما توحى إلينا به هذه العقلية بحكم أننا موجودون فى هذه الحياة أما العقلية الأسيوية ، فالعقلية التى تلائم الحياة الآخرة فإذا انتقلنا إلى الحياة الباقية فهنالك نتبع ما توحى به هذه العقلية)

(لم تسلم الأمم الأسيوية يوما من الفقر والتعاسة وليس لهذا من سبب سوى أنها اعتادت على أن تستقرىء حياتها المعيشية كلها من تشريعها الدينى المقدس ولن تقف على طابع آخر غير هذا إذا ما قلبت تاريخ مصر والهند وفارس واليابان القديمة والصين وبلاد العرب فإن هذه الأمم بجهلها قد نسبت لأمرائها وسلاطينها أو لغيرهم من مقدمى الانتهازيين صفات قدسية حينا أو سلطة إيحائية حينا آخر وكان من نتائج هذه العقلية أن تردت الأمم الاسيوية فى وهدة التعاسة والشقاء)

(أما المعركة القائمة اليوم فموجهة بكل ما فيها من قوة إلى القضاء على هذه العقلية الاسيوية والحالة جلية واضحة فلست تجد فى أوربا مثقفا أو غير مثقف يمضى فى أعماله متراكلا على سلطة الوحى أما فى آسيا فإنك لا تجد شيئا اللهم الا الأنبياء والقديسين والحكام الذين يستمدون سلطتهم من الله مباشرة .

تجد الأوامر والنواهى القدسية متغلغة فى تضاعيف العديد الأوفر من الشئون الخاصة الصرفة للناس محتكمة فى كل وجه من وجوه حياتهم الاجتماعية

---

(١) اعتمدنا فى نقل هذه الفقرات على ترجمة للاستاذ الفاضل اسماعيل مظهر

والاقتصادية والتجارية والإدارية ولديهم أن هذه الأوامر والنواهي هي أوامر الله ونواهيه وعلى هذا لا يمكن تبديلها أو تكييفها بإذا تبدل الزمان وتكيف وجمدت هذه الأوامر والنواهي مقصورة على اللحاق بروح العصر نشوء وارتقاء لا تجد من شيء اللهم إلا نبيا آخر مرسلا بتعاليم جديدة ولا مرية في أن تتابع ظهور الأنبياء في آسياله طابع خاص بها لا تفاضلها فيه بقعة أخرى من بقاع الأرض)

(لم تكن الديانات في تاريخ آسياكله إلا حركات رجعية أملتها الغيرة التي تزود بها كل رسول جديد ضد الرسل الأقدمين . ان ديانات آسيا كافة واحدة في جوهرها فإن تعاليم بوذا وكونفوشيوس وبراهما وموسى وعيسى ومحمد كلها واحدة فإن اختلفت فإنها إنما تختلف في التفاصيل لا في القواعد)

(إن مشيدوا العقلية الآسيوية وواضعوا قواعدها لم يتوانوا على أن يجعلوا أساسها الاعتقاد بأن الحق في هذه الحياة تقليدي لا عقلي ولكن نتساءل ما هي التقاليد ولماذا لا يكون لدينا من الحرية ما نستطيع به أن ننظر في هذه التقاليد نظرة تحليل نحكم فيها العقل : تلك التقاليد التي لم تسم بنا يوما إلى أفق السعادة والحرية والثروة ومعرفة حقيقة الانسانية بل كثيراً ما عضدت أسباب التعاسة والشقاء وقويت جذور شجرة الاستبداد التي تمتع بثمراتها الرئيس الروحي خلال كل الأزمان ، وبما أن هذه التقاليد لم توضع الا لتطبق على الانسانية فإن العقل الانساني يحس ضرورة بإنه مقصور على أن يبحث في أصلها ونشأتها وماهيتها ليعرف ان كانت التقاليد سموما قاتلة أم أنها عقاقير لقمان السحرية)

(إن من أبلغ السفسطة أن تقول بإن العقل الانساني لا يستطيع أن يدرك الحقيقة إن كل الذين أوصلوا الينا هذه التقاليد وبثوها في نفوسنا قد اتخذوا العقل الانساني وسيلة لبثها . وما هذه التقاليد لدى الواقع الا مجموعة من السخف لا يمكن أن تقاوم قوة النقد ساعة واحدة ولم يكن في مستطاع أحد من ناطق هذه التقاليد (الأنبياء) أن يوحي الينا برسالة تساعدنا على اختراع آلة من الآلات أو استكشاف الكهربائية أو البواخر أو الطيارات أو التليفون اللاسلكي

أو مبادىء الطب التى تساعدنا على مقاومة داء السرطان أو السل أو غيرهما من الأمراض ولقد ثبت فى روعنا اليوم أن مايجب أن يوحى الينا به من العالم المجهول انما ينحصر فى مثل هذه العلوم لخير الانسان والإنسانية وإذا قلبت تاريخ آسيا برمتها منذ أبعد العصور إلى اليوم لما استطعت أن تلتقى فى سفرك الطويل بقديس واحد من أولئك القديسين الذين اتخذوا العلم للقداسة طريقا فى حين أن تاريخ الدنيا يفيض بذكر الكثير ممن هم من هذا الطابع الخالد أولئك الذين استكشفوا الحق وعرفوا الحقيقة . أولئك الذين آمنوا بأن الحق عقلى لا تقليدى . لا الذين ظلوا طوال الأعصر ينتظرون الوصول الى الحق من طريق التقاليد ولا شبهة فى أن رجال آسيا وهذه عقليتهم لايستطيعون أن يدركوا من الحقيقة شيئاً)

« لقد عودنا بأن نلقن بأننا عبيد الخليفة (ظل الله فوق الأرض) وأننا له ملك ومتاع وهذا يتضمن بالضرورة الاعتقاد بأنه ليس لدينا من شىء يمكن أن يقاوم قوة خليفة الله الواحد القهار . المتربع فوق عرش الأرض وأنه لن يكون من نظام إجتماعى اثبت أصولا من اجتماعنا ولا حياة دنيوية أسعد ولا أمتع من حياتنا بينما كانت الحقائق الملموسة توحى لنا كل حين بأن فى أنحاء مملكتنا فقر وجوع ، وأن جزءاً بعد جزء من أطراف الأمبراطورية كان يؤخذ عنوة ورغما منا نهبا واغتصابا ، وكانت لنا حكومة هى أضعف من أحط الحكومات الأوربية متردية فى حمأة الرشوة مفككة الأوصال مضطربة الأحوال بعيدة عن حكم الشرائع والآداب ، وأننا كنا نستجدى الغرب فى كل شىء نحتاج اليه ومع كل هذا فقد كان لدينا (ظل الله فوق الأرض) وأربعون زوجة من زوجاته ، وأربعون غلاماً ممن تعرف ولا أذكر ، لاشغل له إلا أن يحمل الشعب على أن يتجرع فكرة الجنة ونعائمها على ما وصفها رجال المذاهب القديمة . كان قد أصابنا الانحلال فى الداخل ، ولم يكن لدينا من سبيل لكى نفهم الحق أو نعرف الحقيقة إلا بأن نتصل من طريق ما بالمعرفة الأوربية ، وأن نعترف بتفوق العقلية الغربية وأن نكب على درس الأسباب التى غرست الشقاء

والتعاسة فى أرض من كنا نعتقد أنه (ظل الله فوق الأرض) ولما فعلنا بان لنا (أن ظل الله فوق الأرض) لم يكن شيئا اللهم الا صنم مفقود القوة والروح كأى صنم من اصنام بوذا فى الهند وكان لنا بمحمد أسوة فكما انه حطم أصنام مكة والمدينة كذلك نحن حطمنا اصنام الخلفاء والمذاهب القديمة والتكايا والقبور : هذا هو معنى الثورة أما نتائجها فسوف تكون عظيمة لخير الأمة وسعادتها فى المستقبل)

هذه بعض فقرات من الكتاب تحمل فى طياتها كما قرأت هذه السخرية والسخط على الدين ورجاله والداعين اليه والمؤمنين به والعاملين له وليس من سبب لذلك لو أردت أن تدرس الناحية السيكولوجية لهذه البيئات التى اختمرت فيها بذور هذه الثورات جميعها الا سبب واحد ـ سبب شنيع بغيض مخز ـ سبب يحمل فى طياته أنانية الحكام وفجرهم ويفضح فيهم ضميرهم الميت وشهواتهم الخبيثة ووحشيتهم البشعة وتضامن رجال الدين معهم فى ذلك

نعم لو أراد الباحث النزيه أن يستخرج علة لقيام هذه الثورات وللبواعث التى كانت تأمر فيها وللقوة التى كانت تحركها لخرج بما ذكرت ، ولخرج بما هو أشد هولا وبشاعة مما ذكرت : وهو أن الذى يتحمل المسئولية وتنصب عليه كل التبعات فى الانقلاب على الدين ، ومحاولة محوه من الوجود ، ووصمه بكل هذه الصفات كما رأيت . انما هم رجال الدين أنفسهم لأنهم لم يحاولوا أن يفسروا الدين بعقلية حرة تجديدية . وعلى ضوء نظام التطور والارتقاء ، وانما قيدوا الدين ، وقيدوا أنفسهم والمتدينين معهم فى دائرة ضيقة تقليدية هى خطر على الدين فى جوهره ومعناه ، وغاياته لم يسألوا أنفسهم : ماهى الغاية الحقيقية لنزول الأديان ؟ وهل كانت تنشد شيئا غير صلاح الانسان ورقيه وامتيازه ، وايمانه بالخير والمثل العليا وقتل كل شهوات دنيئة فيه ، والارتفاع به عن حيوانه الحيوانية البهيمية التى كان يحياها ، وجعله يؤمن بأن هناك أشياء أخرى كثيرة غير مطالب جسده ، واشباع غرائزه يجب أن يعطيها شيئا من التفانه واهتمامه ، وأن يجعلها تؤثر فى تكوينه ومجرى حياته ، وأن يرتب معيشته على نظم ومبادىء من طبيعتها صلاح العمران ومنع الفساد

فالدين عندما أنزل على الرسل ليبشروا به الناس كان يحتفل بالانسان . وعنصره وكان يؤمن به وينشد له تنظيم حياة راقية صافية فيها سعادته ونعيمه ولكن رجال الاديان فى كل زمان ومكان الذين لم يعاصروا انبياءهم ورسلهم وانما اتوا بعدهم بفترات غير قصيرة لم يسألوا أنفسهم عن شىء من ذلك وإنما فسروا الدين على هواهم ، وفى حدود التقاليد والرجعية التى لا تخلو من الكذب والافتراء فحقروا الانسان وزهدوه فى دنياه ، وشجعوا الناس على حياة الذلة والمسكنة والخضوع والخنوع وقتلوا فيهم كل روح للتجديد والابتكار وعدم الاحتفال بحياتهم التى يحيونها : زهدوهم فى كل شىء الا فى أن هناك حياة أخرى يجب أن ينفقوا كل وقتهم وحياتهم للعمل لها وحدها ، وان يقاطعوا كل عمل يتصل بحياتهم الدنيا ، لينقطعوا للزهد والاتكال والقنوع فى كسل وخمول يرددون الفاظاً بأفواههم لأن ذلك هو ثمن سعادتهم الآخرة :

يصورون ذلك كله مما يدعو إليه ويعمل له الدين والدين من كل ذلك براء

ان المتدين العاقل البصير يسأل نفسه أول ما يسأل عن الغاية من وجود الدين ، وعن الغاية مما ينبغى تحقيقه من المبادىء والنظم والآراء ثم يتبع هذه الغاية بأية وسيلة تقربه إلى تحقيقها التحقيق الصحيح ولا حرج عليه أن اختلفت وسائله والوسائل التى كان يدعو إلى اتخاذها الدين ، لأن العبرة والمعول على الجوهر وليس على الوسائل ، ولأن الوسائل كثيراً ما تتغير وكثيراً ما لم تعد تصلح وذلك بحكم الزمن والتطور « أما الغاية فهى الجوهر فى كل شىء لأنه غير قابل للتغير بحكم لانهائيته وبحكم طبيعته الخالدة » والأديان السماوية فى طبيعتها الاتمانع فى ذلك لأنها قد نزلت لتخاطب العقل الحر بحكم أنها كانت تنعى على العقل التقليدى الرجعى فسكان من طبيعتها وديدنها الجدل والنقاش والاقحام لأنها هى الأخرى كانت جديدة على العقل الانسانى بحكم ما سبقها من ألوان التفكير التى اتخذها العقل مادة له فى بداءته الأولى ولذلك كانت هذه الكتب السماوية نفسها تنعى على الانسان جموده وتنكر عليه عقليته هذه الرجعية التقليدية التى لا تؤمن بالقديم إلا لأنه قديم ورثته عن آبائها وأجدادها ، والتى تنفر من الجديد لأنه جديد تخشى أن يغير ما ألفته من

معيشة وما تواضعت عليه من حياة والانسان بطبيعته يركن إلى ما ألف ولوكان فيه تعاسته ، وينفر مما لم يألف ولوكان فيه سعادته والمتصفح لكل الكتب السماوية يظهر له كل ذلك فى غير عسر ولا إبهام :

كان هذا هو الشر الأول والاثم الكبير الذى ارتكبه علماء الدين فى حق الدين ثم أتى الخلفاء والأمراء فحكموا الناس حكما أوتقراطيا محضا يبيحون لأنفسهم مالم يبيحونه لرعاياهم لأنهم يعتقدون ورعاياهم يسلمون لهم بذلك انهم خلفاء الله فى أرضه يتصرفون فيها كيفما يشاءون وحسبما يهوون يميزون أنفسهم عن رعاياهم فى كل ظرف من ظروف الحياة ومع ذلك نرى رجال الدين يقرونهم على ذلك ويخدرون الناس بتلهيتهم عن حياتهم هذه الدنيا ليحظوا بالآخرة مما جعل أكثر المفكرين الأحرار فى كل ثورة فكرية أو انقلاب تحريرى يغضبون على الدين ويسبونه ويرمونه بكل نقيصة ويحملونه مسئولية تاخر الانسانية وانحطاطها وترديها فى هذه الهاوية السحيقة التى لولاهم ولولا انتشالهم لها لقضى عليها قضاء لارجوع فيه مما ظهر لك فى أول هذا الكتاب

ولعل سائلا يسألنى بعد ذلك لماذا وضعت هـــذا الكتاب ؟ . وأنا أجيبه فى قوة وشجاعة ، وفى غير دوران أو التواء أننى وضعت هذا الكتاب لأدافع به عن الدين الصحيح ، لأكشف عن جوهره ، واهتك النقاب عن غاياته وما يرمى إليه ، لأظهره للناس عاريا صافيا خالصا مما علق به من أوهام وخرافات وخزعبلات أعلم أنه برىء منها وانه ينكرها على نفسه وينكرها ممن ألصقوها به بنية سليمة لجهلهم وغباوتهم ، وعدم ادراكهم ، أو ممن الصقوها به بسوء نية لمآربهم الجشعة وشهواتهم النهمة ، ونزعاتهم الخبيثة

نعم لقد وضعت هذا الكتاب بالأدلة على ان الدين فى جوهره وغاياته لا ينكر التقدم ولا يخاصم التجديد ، وانما يشجع الارتفاع بالفرد والاحتفال به : كما يشجع تنظيم الجماعات ورقيها . كما أنه يقر اجتهاد الانسان وحريته وافكاره البصيرة . وما يسعى له من حياة ممتازة ومثل عليا

إنى لأبتسم فى سخرية مريرة عندما أقرأ لبعض متعنتى الصوفية ومترهبيهم

والزاهدين المتخلفين عن ركب الحياة : ان الحياة ماهى الا كعبة حذاء من العبث الاحتفال بها وان الرجل الذى يحتفل بحياته ويجهد ويسعى فى أن يوفر لنفسه حياة راقية ممتازة هو رجل مكروه من الرب بعيد عن السماء سائر فى طريق الضلال

ولو تبسطت مع هؤلاء الناس . وأردت أن تسبر غور تفكيرهم . وأن تصل إلى مداركهم لتستخرج من ذلك كله صورة لنظرهم الى الحياة ؛ وتفسيرهم لحقيقة الوجود لهالك الأمر وافزعتك الحقيقة ، ولرجعت مشفقا عليهم راثيالهم باكيا على حالهم وتخبطهم وضلالهم

ان هؤلاء الناس الذين يتشدقون بحب الرب والقرب من السماء مغضوب عليهم من ربهم ، بعيدون عن السماء حاملين لعناتها وسخطاتها فهذه الاشارات التى أتت فى كل الكتب السماوية مزهدة الناس فى الحياة الدنيا منزلة من قيمتها حاططة من قدرها ليس معناها أنها تدعو الانسان إلى ان ينكر وجوده وحقيقته وأن لا يتمتع بكل ما طاب له ولذ مما بسطه الله وانما ترمى إلى معنى سام رفيع تدركه العقول البصيرة والقلوب النيرة ، وهو محـــاربة الجشع والبطر والاستغلال الرخيص ؛ وقتل شهوات الانسان الخبيثة ، ومحاربة كبريائه وغروره والحد من حيوانيته النهمة التى لا تتفق ونظام العمران

إن الانسان بطبيعته وجبلته مفطور على الغرور وحب الذات والتمتع والاستعلاء على حساب غيره من الضعفاء والمساكين ولو ترك له الأمر لاستبد وتكبر وطغى وهـــدد الانسان والعمران فى سبيل لذائذه وشهواته ونزعاته الحيوانية فيكون من نتيجة ذلك ماذا ؟ يكون من نتيجته تأخر العمران وانقراض نوع الانسان فهذه الاشارات التى أتت فى الكتب السماوية محقرة الدنيا منزلة من شأنها لم تكن تقصد الا مثل هؤلاء الطغاة القساة المستبدين الذين كانوا يسعون فى الأرض فسادا يقاتلون ويعتدون لا لشىء الا لنزعات طارئة وشهوات فاجرة يعيشون فى همجية متواصلة قانونهم الاعتداء والسلب والاغارة على الضعفاء من بنى جنسهم يتصرفون فيهم كما يشاءون بالبيع أو الرهن

أو يقتلونهم ويفنونهم من الوجود ولا اعتراض عليهم فى ذلك لأن هذا قانون متعارف بينهم :الحق للقوة ، والزعامة لمن يسلب ويعتدى ويغير على الغير والدارس لكل البيئات التى انزلت عليها هذه الديانات يرى ماذا ؟ يرى أمما يكيفون حياتهم على هدى غرائزهم ، ويسلمون قيادهم لمن يظهر البطش والقسوة والظلم عليهم يدينون للطاغية ويعبدونه ويؤلهونه . ينكرون ذاتيتهم وفرديتهم لا فى سبيل الصالح العام ولا فى سبيل نفع المجتمع الذى يعيشون فيه وإنما لأجل نزوات حاكمهم ووليهم فهم قطيع عنده يسخرهم لجمع المال من غير طريقه الشريف وتوفير لذائذه البهيمية التى ترجع بالانسان القهقرى إلى الوراء حيث كانت تسوده شريعة الغابة ، وشريعة الغرائز التى تقرر بأن (الكل للقوى ولاشىء للضعيف)

الدارس لكل هذه البيئات يرى مجتمعات يحتفلون بالحياة حقيقة ويحبون أن يوفروا لأنفسهم فيها الرفاهية والسعادة والهناء ولكنهم لا يفعلون ذلك بجهدهم وثمرة أعمالهم ومايستعذبونه فى سبيل ذلك من آلام ، وانما بيطشهم واعتدائهم على حقوق الغير وطمعهم فى سلب ما لا يملكون ، لا يحتفلون بهـــذه الحياة ولا ينظرون اليها بمنظار التفكير والعقل والبصيرة ، وإنما بمنظار الحيوان الشره المفترس الجبار الكافر بقانون النظـــام وقانون التعاون وقانون الاخاء فهذه الاشارات لم تكن تعنى إلا هذه المجتمعات التعسه التى تخضب ايديها بالدماء فى سبيل لذائذ فانية ولكنها لم تكن تعنى أبدا إنكار الانسان نفسه وعمل الانسان لدنياه وحثه على الكشف والاختراع والتطور فى حياته بدليل ماأقرته من النظم التى اصطنعها الانسان لنفسه مثل التشريعات اليونانية والرومانية التى أدمجتها فى تشاريعها ادماجاً مما سنحدثك عنه باسهاب فى موضعه من هـذا الكتاب عندما نتحدث عن علاقات الاديان بعضها ببعض

ولا يطاوعنا القلم أن نمضى دون أن نرجع ثانية إلى هذه الفئة من المتقشفين المستذلين المنكرين للحياة فنسألهم : ماهى حقيقة الرب الذى تعبدونه وما هى حقيقة السماء التى تعطف عليكم ؟ وهل يكره الرب أن يرى خلقه فى جمال وقوة ونضارة وحياة ؟ وهل عظمة الخالق تكون أروع وأعظم فى بقاء الحياة على حالها بغير تقدم بل

بتأخر : أم بتطور الحياة واستغلال خيراتها ومواصلة البحث لاستخراج أسرارها ، والانتفاع بما أودعه الله فيها من مزايا وعناصر قوة وارتقاء

إنى لأسائل هؤلاء الناس وفى جوانحى أسآ ، وملء فمى دهشة من تخبطهم وظلوعهم ، ومن ضيق مداركهم وظلام بصيرتهم

إنى لأسائلهم : كيف عرفتم الله ؟ وكيف توصلتم إلى حقيقة السماء ؟ وهل إيمان الانسان بالله بعد تفكير وتعقل وتأمل خير ؟ أم إيمانه به بالتقليد والسماع والانقياد ؟

نعم انى لأسألهم هذه الأسئلة ولكنى لن أسمع منهم جوابا لأنهم يتشككون فى مقدرة الانسان وقوته يجحدونها ويكفرون بها بل إنهم ليكفرون بالانسان جميعه وبكل ماوهبه الله من ميزات وصفات وفضائل ميزه بها وفضله على كل العالمين وعلى جميع المخلوقات

فالانسان عندهم خلق من قاذورات وركب من نتانة فأصله وضيع ضعيف حقير : ومن هنا يستعذبون الذلة والمسكنة وتعذيب أنفسهم وعدم السعى فى الحياة ناسبين ذلك كله إلى واجبات الله وأوامر الدين وتنزيلات الكتب المقدسة مستغلين بعض آيات من التنزيل كانت تأتى لتعالج مشاكل خاصة فى بيئات معينة لظروف كائنة ضاربين صفحا عن التنزيل فى مجموعه وفيما يهدف اليه ويبغى تحقيقه

ولكننا لانحب أن نتمادى فى ذلك كثيرا ، وإنما نعرض هنا هذا العرض البديهى وهو هل تأتى معرفة الله الحقيقية المؤيدة بالدلائل المادية بطريق غير العقل ؟ وهل يكون العقل صافيا خالصا مليئاً بالقوة والحيوية فى جسم غير سليم صحيح ؟ وهل يتوفر الجسم السليم الصحيح بدون أن يأخذ الانسان حظه من المتع البدنية ويوفر لنفسه ماشاء من طيبات الحياة

وهكذا نرجع فنجد الانسان هو الكائن الممتاز ونجد حياته هى الحياة لانقول الجديرة بأن يعتز بها ويعمل لها ويحرص عليها لانقول ذلك فقط وإنما نقول فوق ذلك إنها هى الحياة التى بها عرف الخالق ، والتى هى استعداد لمعرفة قدرته وعظمته وبديع خلقه : فإذا أراد إنسان أن يسمو بحياته ويرتفع بها

وأن ينقب ويفتش ويسخر كل ما يمكن تسخيره لمنفعته ومصلحته من أسرار الأرض والسماء والهواء ، وان يعتز باستقلاله التفكيري والعقلي في اصطناع مايلائم حياته الحديثة من نظم ومبادىء وقوانين قالوا له قف مكانك! إنك تأمر بغير ما نزل الله ناسين أو متجاهلين أومتغابين أن الله لايكره أن يرى في مخلوقه استعداده للتطور والخلق والابتكار لأنه هو الذي أودع فيه تلك القدرة ، ولأنه من قوة المخلوق تستبان مقدرة الخالق ولأن الله لم يكن يرسل أنبياءه ورسله الا عندما كان يفلس الانسان وينفد رصيده من بواعث التقدم والارتقاء !

وماهي حقيقة السماء ؟ هل حقيقة السماء شيء غير درس الطبيعة وكشف ماوراءها من غموض وابهام ؟ وإذا فليقل لنا هؤلاء الناس المقربون من السماء لماذا نجهد في معرفة حقيقة الطبيعة أو ماوراء الطبيعة ومافيها من شمس وقمر ونجوم وعوالم أخرى بل لماذا وجدت فيها هذه الشمس والقمر والنجوم والعوالم الأخرى ألأجل أن ننتفع بها في حياتنا هذه الدنيا ونسخرها لاستغلال أرضنا التي ندب عليها أم لأجل أن نتكرها ونتمنى زوالها ومحوها ليعجل بنا ذلك كله إلى حياتنا الآخرة !

إن كل ظاهرة من ظواهر الطبيعة ، بل من ظواهر السماء تنادي بالحياة وتعمل على تنمية الوجود وإحيائه وازدهاره والتقدم به بخطى سريعة إلى الامام فمن يقف ومن يتخلف في الطريق فلن يحفل به أحد وسيدوسه الركب وان يبوء الا بالندم والهلاك والضياع

وإذاً فأنا لم أضع هذا الكتاب إلا لأجل أن أبدد به هذه المعتقدات الباطلة وهذه المزاعم المضللة التي إن دلت على شيء فانما تدل على جهل فاضح بحقائق الكون وأسرار الوجود ، ورسالات السماء

إننا لنسمع كثيرا من علماء الدين ومن كتاب يتعرضون للدراسة والبحث في مسائل الأديان ونظمها ومبادئها وقوانينها فيبرزون لنا ماسموه المادية والروحانية زاعمين أنهما ضدان متخاصمان متنافران لاترتبطهما ببعضها صلة كبيرة أو يسيرة

ومن هنا ننظر وينظر معنا القارئون والآخذون عن هؤلاء العلماء فنجد

أمامنا مشخصين قائمين متخاصمين مشخصا يرمز إلى المادية والآخر الى الروحانية مشخصا يشمل العلوم وما يدخل فيها من كافة العناصر الطبيعية والجيولوجية والقوانين الصناعية ورسالته البحث والتقصي والتجربة والاختبار والكشف ثم الاختراع والخلق ، وإضافة كائن الى الكائنات له أصول وآثار مختبئة كامنة تحتاج الى من يعالجها ويكشفها ويعرف أسرارها وهذا هو مشخص المادية

أما مشخص الروحانية كما يبسطه ويفسره رجال الصوفية وبعض علمائنا الدينيين فنجده يشتمل على ماذا ؟ نجده يشتمل على العلوم النظرية ثم على الزهد والقناعة والتحقير من شأن الدنيا والخصام والمناقشات البيزنطية الشديدة العنيفة لكل مظهر من مظاهر المادية

وهكذا سادت هذه المهزلة ـ مهزلة رجال الصوفية وبعض علمائنا الدينيين ـ الذين ضللوا الناس لغبائهم وجهالاتهم وأخذهم بالظواهر والقشور ولإغضائهم عن الجوهر واللباب ففسروا لهم الروحانية قائمة بذاتها مضادة للمادية فى كل شىء بل قالوا لهم إن المادية خطر على الروحانية ، وان اجتماعهما ببعض فيه تعويق لقوانين الحياة وفساد لنظام العمران وإشاحة عن أوامر الله ومن هنا جعلوا الروحانية وحدها المثل الأعلى للإنسان ، وهى السمو الذى لا يصل إليه إلا كل إنسان رفيع ممتاز

ونحب نحن قبل أن ندخل فى مناقشة هذه المسألة ، وقبل أن ندلل على أن المادية من صميم الدين ، وأنها تشغل حيزاً غير قليل من رسالات الكتب السماوية نحب قبل أن ندخل فى هذا النقاش أن نوجه سؤالا بسيطا إلى هؤلاء السادة الأفاضل : وهو هل من الممكن أن يدلونا على إنسان أو على مجتمع خاصم المادية وأنكرها ، ولم يخضع لها فى مجرى حياته وعمر على ذلك طويلا ؟ أما إذا كان الجواب بالسلب وهو بالسلب حتما لأن الانسان بطبيعته وخلقته مادى لأنه ابن للمادة خلق منها ويعود إليها يخضع لها خضوعاً تاماً سواء رضى ذلك أم لم يرض وسواء أراده مختارا أم مكرها

وعلى ذلك فاننا نحب أن نقرر هنـــا مستمدين ذلك من روح الأديان وتشاريعها جميعا نحب أن نقرر بأن المادية لا تصلح الا بالروحانية ، وأن الروحانية

لاتعيش بدون المادية

وعندما ننظر إلى بعض الديانات التى جاءت تدعو الروحانية ولم تحفل بالمادية فى شىء يذكر مثل الديانة المسيحية نجدها لم تكن تحارب المادية أو تخاصمها أو تنكرها : وإنما جاءت فوجدت مجتمعا خاضعاً لماديته كل الخضوع غارقا فى حيوانيته الى أذنيه ، قائما حياته على هدى غرائزه فدعت إلى الروحية لا لتحارب المادية أو تخاصمها أو ترتفع عنها وانما ليتكيف مع بعض فتصلح الروحانية المادية ، وتقوم ما اعوج فيها وماشذ من طباعها

من هذا يظهر لنا أن المادية متماسكة بالروحانية كل التمسك وأن الروحانية متعلقة بالمادية كل التعلق وأن الانسان يخضع فى حياته للماديات ويتأثر بالروحانيات بل من هذا يظهر لنا أن رسالات الديانات السماوية نفسها حثت الانسان على السعى نحو الماديات بعد أن يسموبها ويخضعها لأحكام العقل البصير الرشيد فاذا جاءنا بعد ذلك شيخ ، أو قسيس ، أوحاخام وقال لنا : ان الدين يدعو إلى الروحانية ويحبذها ويعمل لها ، وينهى عن المادية وينكرها ويحاربها بكل سلاح من أسلحته لأنها خطر على الانسانية وسم زعاف فيه هلاك للبشرية فماذا يكون جوابنا عليه ؟

يكون جوابنا عليه أنه ساذج فى تفكيره ، ضعيف فى عقله سادر فى ضلاله

يكون جوابنا عليه أنه بعيد عن جوهر دينه ، هادم لغاياته وما يرمى اليه من إصلاح شأن الانسان فى حياته التى يحياها والتقدم به بخطى سريعة نحو التطور والسمو والكمال

يكون جوابنا عليه أنه مخالف حتى لمنطقه لأنه هو نفسه خاضع للمادية مستعين بها على أداء رسالته ، وأعمال وظيفته

إن جميع الأديان السماوية فى جوهرها وغاياتها لاتنشد إلا شيئاً واحداً : وهو تكوين مجتمع إنسانى راق نظيف عامل مفيد آخذ بأسباب التقدم والتطور السريع ليسعد نفسه ، وليسعد من سيخلفه بعد ذلك من أجيال

فاذا جاءنا بعد ذلك إنسان ـ كائن من كان ـ وقال لنا : إننى أتعبد النهار وأقوم

الليل فى التهجد لله . وانى أقف وقتى وحياتى على ذلك لأظل قريباً من الله : قلنا له إنك كاذب مخاتل مخادع بعيد عن الله جاهل بتعاليم دينه :

إن الله لايريد العبادة فقط و إنما ذلك وسيلة لتحقيق غاية رفيعة سامية للإنسان : وهى تمسكه بالمثل العليا وتمثله بصفات الحق والعدل والحب والايثار ، و بكل ماهو حميد قويم وحسبنا فى هذه العجالة قول رسول الاسلام محمد بن عبد الله عندما جاءه نفر من أصحابه وقالوا له (إن فلاناً مقيم فى المسجد يتعبد فى النهار ويتهجد فى الليل فقال لهم من يعوله قالو كلنا نعوله يارسول الله فقال لهم صلى الله عليه وسلم كلكم خير منه)

وهكذا أرانى رغما عنى أختم هذه المقدمة وفى نفسى أشياء ولكنى لن اعدم أن أعالجها بتطويل فيما يلى من موضوعات هذا الكتاب بيد أننى أحب قبل أن أطوى هذه المقدمة أن أشهد الله وهو العليم ببواطن الأمور أننى ما فكرت فى تأليف هذا الكتاب واخراجه ونشره بين الناس إلا لأشياء خطيرة أحس أن ضمير الزمن يهمس بها ، وأحس أن جيلنا هذا الحاضر قد تبلورت فيه آراء جديدة هدامة تسبق العاصفة التى نحب أن نتفاداها ، وأن نخمد أوارها بالاصلاح قبل أن تقوم

ولنى أشهد الله مرة ثانية وهو العليم ببواطن النفوس أننى لست متأثرا بأى شىء ولا بأية نزعة ، وأننى لا أستمضىء فى كتابتى هذه الا بوحى الحق ولا أنشد إلا الاصلاح ما استطعت راجيا من يقرأ هذا الكتاب أن يخلع عن نفسه رداء التعصب وأن يستقبله بعقل حر وبوجدان سليم غير متأثر بأية عاطفة حتى يمكن أن تؤتى ثمرته كما نرجوها (والله ولينا وهو نعم المولى ونعم النصير)